مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
شعبة الدوريات
اشتراك ☐ شراء ☐
تبادل ☐ اهداء ☐

الثقافة الإسلاميّة

العدد الثامن والعشرون

جمادى الأولى - جمادى الثانية - ١٤١٠ هـ -
كانون الأول - كانون الثاني ١٩٨٩ - ١٩٩٠ م

مجلة تصدرها
المستشارية الثقافية
للجمهورية الإسلامية
الإيرانية
بدمشق

رئيس التحرير
المستشار الثقافي
الشيخ محمد سالار

الهوامش

(١) الأغاني ، ١٥/٢٤٣ .
(٢) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص ١٠ ، طبعة ليدن .
(٣) راجع ، الجاحظ ، البيان والتبيين ، ١/٢٦٢ والقفطي ، إنباه الرواة على أنباء النحاة : ١/٤ .
(٤) نشأ علم النحو، فاقتضىٰ إنشأة علم اللغة ، فأدّى إلى جمع الشعر العربي والأدب العربي بعامّة ، الأمر الذي كوّن تراثاً يحتذى وشكلاً من الشعر متداولاً ورائجاً .
(٥) الأغاني : ١٩/٩ .
(٦) البيان والتبيين : ٢/٧ و ١/١٩٥ .
(٧) راجع : البيان والتبيين : ٢/١٨٠ ، وجمهرة أشعار العرب ص ٣٦ و ٣٥ ، والعمدة ، ١/١٥ و ٦٥ .
(٨) العمدة : ١/١٧ .
(٩) راجع الأغاني : ١٥/٢٤٣ .
(١٠) الأغاني ، ٢/١٨٦ ـ ١٨٩ .
(١١) المصدر نفسه ، ٢/١٩٢ و ١٩٣ .
(١٢) المصدر نفسه ، ٢/١٠٧ و ١٧٥ و ١٧٦ و ٤/١٤٤ و ٢٠/٦ ؛ العمدة ، ١/٣٧ و ٣٨ .
(١٣) البيان والتبيين ، ١/٧١ و ٧٢ .
(١٤) الأغاني ، ٢٠/٦ .
(١٥) البيان والتبيين ، ٢/١٩٥ .
(١٦) العمدة ، ١/٢٧ و ٢٨ و ٧٧ .
(١٧) الأغاني ، ٢/١٦٩ .
(١٨) المصدر نفسه ، ١٠/٢٩٠ و ٢٩١ .
(١٩) راجع : طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم ، ص ٤٤ . الأغاني ، ٢/١٠٧ و ١/٧٨ و ٩/٣١٢ و ١٠/٣٠٤ و ٣٠٥ .

« إن الذي يصنع ويربّي الشعوب هو الثقافة الصحيحة » .
الإمام الخميني (قده)

أدب ولغة ونقد

الجهود النحوية في تفسير الطبري

الحلقة الثانية

الأستاذ أمان الدين عتمات

الإحتجاج بالحديث الشريف :

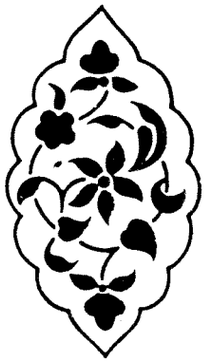

ويراد به أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقوال الصحابة التي تروي أفعاله ، أو أحواله ، وقد أكثر الطبري من الأحاديث النبوية الشريفة في تفسيره لآيات القرآن الكريم وبيان معانيها ، وأحكامها(١) .

أما في تناولاته النحوية فلم أعثر على أيّ أثر للحديث الشريف في إيراده الحجج على إثبات قاعدة ، أو تركيب .

وعدم احتجاج الطبري بالحديث الشريف يفسّره موقف القدماء من المسألة نفسها ، من ذلك ما نراه عند بعض البصريين كعيسى بن عمر (ت ١٤٩ هـ) ، وأبي عمرو بن العلاء ت ١٥٤ هـ ، والخليل ت ١٧٥ هـ ، وسيبويه ت ١٨٠ هـ ، وعند الكوفيين كالكسائي ت ١٨٩ هـ ، وعلي بن الحسن الأحمر ت ١٩٤ هـ(٢) ، والفرّاء ت ٢٠٧ هـ ، وهشام الضرير ت ٢٠٩هـ ، فقد ابتعد هؤلاء عن الإحتجاج بالحديث الشريف ظناً منهم أن الأحاديث مروية بمعناها لا بلفظها . وحجتهم في ذلك اختلاف الروايات في الحديث الواحد ، كالحديث النبوي الشريف : « زوجتكها بما معَك من القرآنِ » فقد روي بألفاظٍ مختلفة ، إضافة إلى أن كثيراً من رواة الحديث كانوا غير عرب ولا يعلمون علم العرب بفصاحة اللسان ، مما أوقعهم في اللحن عن غير قصد .

وقد توضح هذا الموقف من الحديث الشريف فيما بعد ، وعبّر عنه أبو حيّان الأندلسي بقوله : « إنّما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أن ذلك لفظ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن في إثبات القواعد الكلية »(٣) .

لكن موقف الطبري ظهر ضعفه فيما بعد حيث جاء المتأخرون ، وسدّوا الثغرات بفضل

ما وصلهم من مصنفات السابقين ، لذا كانت نظرتهم أوسع إحاطة ممّا مكّنتهم من جمع ثروة نحوية ، ولغوية وافرة ، ولو توفر للطبري وغيره من القدماء ما توفر للمتأخرين من مصنفات ، لتقدم الحديث سائر كلام العرب من نثر وشعر في باب الإحتجاج في اللغة وقواعد الإعراب ، ذلك لأن كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو أبلغ كلام بعد القرآن الكريم[٤] .

الإحتجاج بكلام العرب :

اتسع مذهب الطبري في احتجاجه بكلام العرب، ولم يقتصر احتجاجه على كلام القبائل الضاربة في عمق الجزيرة العربية كأسد وقيس وتميم وهذيل ، بل أخذ كلام العرب من أطراف الجزيرة واليمن ، كلغة الحارث بن كعب ، وخثعم وزبيد ومن وليهم من قبائل[٥] ، وهذا الإتساع في منهج الإحتجاج هو مذهب الكوفيين كما بينت سابقاً .

وكلام العرب عند الطبري يشمل الشعر والنثر ، وهو شأن اللغويين الذين لا يفرّقون بين شعر ونثر في أخذهم عن العرب ، ومن يبحث في معاجم اللغة يجد الإستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال تركيب ، ويجد أن النحاة لا يستشهدون إلّا بالشعر للإحتجاج على صحة قاعدة أو صواب مسألة ، فقد روي ـ إذا صحّ الخبر ـ عن علي بن المبارك الأحمر أربعون ألف بيت شاهدٍ في النحو[٦] ، وكان أبو بكر الأنباري يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شاهدٍ في القرآن الكريم[٧] .

ويكاد الإستشهاد بالشعر والنثر يتساوى عند الطبري ، بل إننا نرى في معظم المسائل النحوية التي تناولها ذكراً للشعر والنثر معاً ، وسأورد مثلاً يظهر فيه تناوب النثر والشعر في إبراز الحجة عند الطبري :

في تفسيره لقوله تعالى : (**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نفس بِمَا تَسْعَى**)[٨] ، يريد الطبري أن يبيّن أنّ (كاد) تكون بمعنى النفي ، أو بمعنى (أراد) ، أو تكون زائدة ، فيقول :

« وذكر أنّه حكي عن العرب أنّهم يقولون : أولئك أصحابي الذين أكاد أنزل عليهم ، وقال : معناه : لا أنزل إلّا عليهم ، قال : وحُكي : أكاد أبرح منزلي : أي ما أبرح منزلي ، واحتجّ ببيت أنشده لبعض الشعراء :

كادَتْ وكِدْتُ وتلك خيرُ إرادةٍ ... لو عاد من عهد الصبابة ما مضى[٩]

وقال : يريد بكادت : أرادت ، قال : فيكون المعنى : أريد أخفيها لِتُجزي كلّ نفس بما تسعى .

قال : ومما يشبه ذلك قول زيد الخيل :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سلاحَهُ ... فَمَا إنْ يكادُ قِرْنُهُ يتنفَّسُ[١٠]

وقال : كأنه قال : فما يتنفّس قرنه ، وإلّا ضعف المعنى ، قال : وقال ذو الرمّة :

إذا غيَّر النَّأي المحبِّيْنَ لَمْ يَكَدْ ... رسِيسُ الهَوَى من حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ[١١]

إضافة إلى أكثاره من الإستشهاد بالشعر والنثر ، فقد وقف من كلام العرب النثري موقفاً متساهلاً لا يتّسم بالتقصي والرواية ، فكثيراً ما نراه يستعمل عبارة : « تقول العرب » أو ما بمعناها من عبارات توصف بالإتساع وعدم الدقّة في إيراد حججه النثرية ، وربّما كان السبب في ذلك نقله عن الفراء نقلاً شبه تام في مواطن كثيرة ، وبذلك يكون قد اعتمد مقالة الفرّاء انطلاقاً من قولهم : النقل عن الحجّة حجّة .

والبعد عن التحديد في عباراته واضح نحو قوله : « كقولهم ـ أي العرب ـ ربّما فعلت كذا ، وربّما جاءني أخوك »[١٢] و « يقولون في ذلك : لمّا لقيته أقاتله بمعنى : جعلت أقاتله »[١٣] و « إنما تقول العرب : أتيتك غداة الجمعة ولا تقول: أتيتك غدوة الجمعة »[١٤] و « سمعت الفصحاء من المحرمين يقول : إنّ الحمدَ والنعمةُ لك والملك ، لا شريك لك »[١٥] و « ذلك أن العرب تقول : شربت من شرابك »[١٦] .

أما موقفه من كلام العرب الشعري ، فقد أورد الطبري الشواهد الشعرية في تناولاته النحوية بكثرة وغزارة ليدلل على صحة عبارة ، أو صواب قاعدة أو استخدام تركيب[١٧] . ولم تملك شواهده حدوداً مكانية ، مقتفياً بذلك أثر المدرسة الكوفية فاحتج بشعر أوس بن حجر وجرير ، ورؤبة بن العجّاج ، وضابىء البرجمي ، والعجّاج ، والفرزدق ، ومتمّم بن نويرة ، ومسكين الدارمي ، والأسود بن يعفر التميميين ، واحتجّ بشعر الكميت بن معروف الأسدي ، واحتج بشعر أبي ذؤيب وأبي خِرَاش ، والجُرْبِي الهذليين ، ومن جهة أخرى فقد احتجّ بشعر من تنقّل في أطراف الجزيرة العربية غير عابىء بما يشوب لغته من لكنة تضعف فصاحته ، وتنال من أصالته ، كاستشهاده بشعر زياد الأعجم الذي لقّب بالأعجم لأن في لسانه عُجْمة ، وقد ولد ونشأ في أصفهان ، وقضى حياته متنقلاً في الحواضر إلى أن مات في خراسان[١٨] ومع ذلك فقد احتجّ الطبري بشعره .

هذا التناوب في الإحتجاج بين شعر فصحاء العرب ، وغيرهم ممن تأثروا بالأعاجم ، يظهر عدم اهتمام الطبري بما وُضِع من قيود عند بعض النحاة ، فهو يأخذ ما يخدم غرضه وطلبه ، من دون قيد مكاني لشواهده .

أمّا الزمن فقد احتج الطبري بشعراء الجاهلية والإسلام حتى بداية النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عن غير قصد ، فهو لم يتعمّد التشدّد في الزمن الذي وضعه البصريون للإحتجاج ، لأن الإخلال بالمكان والتنقل لدى القبائل العربية ، وعدم التقصي الدقيق في ذلك يتبعه عدم التشدّد الزماني ، ذلك لأن الغاية من القيود الموضوعة في الإحتجاج ، هي الإبتعاد بقواعد العربية عن كلّ تأثر بما جاورها من دخيل وعجمة ، وأي عجمة تدخل العربية لأسباب

زمانية أو مكانية فإنها تنال من نقائها . ومن يتساهل في مكان ، لا بدّ أن يكون التساهل الزماني عنده لا قيمة له ، وهذا ما ينطبق على منهج الطبري في الإحتجاج بكلام العرب .

والسبب الذي جعل الطبري لا يحتجّ بشعر المتأخرين ـ وهو المتساهل في أمر الإحتجاج ـ هو أخذه عن الفرّاء والنقل عنه بأشكال مختلفة . فالفرّاء (١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ) عاش في زمن بدأ فيه الإختلاط بين العرب وغيرهم من الأمم ، وصارت فيه القبيلة التي حافظت على أصالتها قليلة ، والفرّاء أخذ علمه عن قيس بن الربيع ، ومَنْدَل بن عليّ وأبي بكر بن عيّاش والكسائي ، ويقال إنه أخذ عن يونس بن حبيب البصري ، وإنه كان يلازم كتاب سيبويه ، وإنه كان قويّ الحفظ[١٩] ، وأخْذُ الفرّاء عن شيوخه الذين عاشوا في منتصف القرن الثاني ، وأخْذُ الطبري عن الفرّاء ونقله لكلامه نقلاً شبه تامّ ، يوضحان السبب في عدم احتجاج الطبري بشعر القرن الثالث الهجري . ذلك لأنه لم يكن يملك شخصيّة نحوية مستقلة لتظهر في تفسيره ملامحها، بل كانت ملامح الفرّاء هي الأكثر بروزاً في تفسير الطبري، حتى في المسائل التي خالف فيها الطبريّ الفرّاء ، كان يأخذ عن الأخفش ، أو أبي عبيدة وينقل عنهما ، وهذا ما يجعلني أقول : إنّ معرفة الطبري ، وتناولاته النحوية تأتي من خلال معرفة الفرّاء نفسه ، لأن الفكر النحوي عند الثاني هو استمرار لفكر الأول من دون تطوير ظاهر .

إحتجاجه بأبيات مجهولة القائل :

إحتجّ الطبري بأبيات يُجهل قائلها ، ولم تنسب إلى شاعر معيّن ، والأمثلة في تفسيره كثيرة جداً منها قول الشاعر :

لقد علِمَ الأقوامُ ما كان داءَها بثَهْلان إلّا الخِزْيُ ممّن يقودُها[٢٠]

ذلك في مجيء اسم كان وخبرها معرفتين ، فقد ذكر أنه يصح في الأسم الذي يلي كان الرفع على أنه اسم كان ، أو النصب على أنه خبرها المقدم .

ومنه قول آخر :

لو جِئتَ بالخبز له منشَّراً والبَيْض مطبوخاً معاً والسّكرا
لم يُرْضِهِ ذلك حتى يَسْكَرَا

في حديثه عن جواز نصب المعطوف على المجرور ، إذا كان المجرور بمعنى النصب[٢١] ومنه :

فواللّهِ ما أدري أَسَلْمَى تَغَوَّلَتْ أمِ النومُ أمْ كلٌ إليَّ حبيب[٢٢]

في حديثه عن جواز مجيء (أم) الثانية بمعنى الإضراب : بل كلٌ إليّ حبيب .

ولم أعثر في تفسير الطبري على عبارة تكشف عن حجته في الإحتجاج بما لا يُعرف

قائله ، وهذا يدلّ على عدم اهتمامه بدقة نقل الشواهد ، لا سيّما أنه لم يبرر ذلك ، على عكس ما يفعله النحاة الذين ذكروا أن المهم في هذه الأبيات هو راوي البيت لا قائله .

ومهما تكن حجة الطبري أو غيره فإن ذلك تعليل ضعيف ، لأن الرواة الموثوقين كانوا يحرصون على أن يقرنوا البيت باسم صاحبه تحرّياً للدّقّة ، لا سيّما أن بعض الرواة وضعوا الأبيات ونسبوها إلى غير أصحابها ، كما فعل حمّاد الراوية وغيره ، وقد روي لنا أن بعض النحاة انطلاقاً من تعصبهم لمذهبهم ، ودفاعاً عن مدرستهم وضعوا الأبيات ليدعموا قاعدتهم ، ويثبتوا صحتها[٢٣] .

القياس :

اعتمد النحاة القياس على أنه ميزان يعرف به الخطأ والصواب ، إذا ما قيس الكلام على القواعد العربية التي وضعها النحاة . وهذه القواعد هي جملة الأحكام المستنبطة من لغة الشعر الجاهلي ، ولغة القرآن الكريم اللتين تمثلان العربية الفصحى[٤] . وإذا تعارض القياس والسماع رجحت كفة السّماع عند أغلب النحاة ، ولا سيّما سيبويه .

بعد سيبويه توسّع القياس عند النحاة ، وأخذوا يقيسون على القواعد الجاهزة ، وإذا تعارضت القاعدة والنص لجأ النحاة إلى التأويل والتعليل[٢٥] .

وقد شهد الطبري العصر الذي كان فيه النحو قد اكتمل من جميع جوانبه ، واتّسع فيه القياس اتساعاً كبيراً بعد أن أفرغ الرواة قبل ذلك كلّ ما سمعوه من عرب البادية في جعبة النحو ، وأصبحت الحاجة ملحّة ليقيس النحاة ما يجدّ في لغتهم على قوالب لا تخرج عن بنية العربية في شيء .

وقد بنى أغلب النحاة القدماء آراءهم النحوية على الكثير الشائع ، وكلّ ما خالف ذلك لغة لا يقاس عليها . قال سيبويه : « فلا ينبغي لك أن تقيس على الشاذ المنكر في القياس »[٢٦] وقد سار على هذا النهج كثير من النحاة المتأخرين أمثال المبّرد (٢٨٥ هـ) وابن السرّاج (٣١٦ هـ) والفارسي (٣٧٧ هـ) وابن جني (٣٩٢ هـ) .

ورأى نفر قليل أن القياس على القليل النادر جائز ، ذلك أن لغات العرب حجّة . قال ابن جني : « فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء »[٢٧] . وقال أبو حيّان في شرح التسهيل : « كل ما كان لغة لقبيلة صحّ القياس عليه »[٢٨] .

أمّا المفسرون فقد مثّلوا أكثر من اتّجاه ، بعضهم جعل النحو هدفاً من أهداف تفسيره ، وبعضهم الآخر جعل النحو وسيلة للوصول إلى التفسير .

والطبري ـ شأنه شأن أغلب المفسرين ـ اتخذ النحو وقضاياه وسيلة للتفسير ولم يكن

هدفاً من أهدافه التي يسعى إليها في تناوله لأيّ قضية نحوية ، سواء أكانت كبيرة ، أم صغيرة ، وهذا الأمر يبرّر قلة القياس في تفسيره ، فهو ينقل عن غيره ولا يعمد إلى القياس ، واستنباط الأحكام .

ومن يقرأ « جامع البيان » بروية وإمعان يدرك هذا الأمر إدراكاً واضحاً ، ذلك أنه يقف عند الآية شارحاً المعنى ، معدّداً آراء المفسرين الذين سبقوه كالفرّا ، وأبي عبيدة والأخفش ، ويختم تفسير للآية بالوقوف وقفة نحوية ـ قد تطول وقد تقصر ـ إذا كان في ذلك خدمة لمعنى . وكثيراً ما كان يقصر تفسيره للآية على شرح المعنى . لغةً وتركيباً من غير معالجة نحويّة .

وقد اتخذ الطبري في تناوله للقضايا القياسية على قلّتها أكثر من اتجاه ، كما هو الأمر عند المفسرين الذين لم يكن النحو هدفاً من أهداف تفسيرهم . فهو يميل نحو الآراء البصريّة حيناً ويدعمها بالحجج والبراهين ، ويأخذ آراء الكوفيين أحياناً أخرى ويشرحها مبيناً سبب أخذه بها .

لم يكن الطبري تابعاً ومقلّداً في آرائه النحوية واجتهاداته في تفسيره ، بل اتخذ كثيراً من المواقف المستقلّة التي ابتعدت عن الكوفيّين والبصريّين يدافع عنها ، ويسوق الحجج والشواهد لما يقول ، وإذا لمس الطبري من بعضهم ما يخالفه مخالفة كبيرة ، فإنّه لا يتورّع عن استخدام ألفاظ قاسية كأن يصفهم بأنهم لا يعرفون العربية ، وما شابه ذلك من عبارات .

ويذهب الأمر بالطبري أحياناً إلى مخالفة الفرّاء ـ على الرغم من التأثر الكبير به ـ وهذه المخالفة ـ إن دلّت على شيء ـ فإنما تدلّ على أن الطبري لا يأخذ رأي الفراء من دون أن يقتنع به حتى تتولد لديه الفكرة الواضحة .

اعتمد القياس عند البصريين على الشائع عند القبائل العربية التي حافظت على عزلتها في الجزيرة العربية ، ولم يأخذوا عن القبائل التي عاشت في أطرافها لما في ذلك من تأثر بالأقوام غير العرب وما يتبعه من ضعف في لغتهم الفصيحة .

وعلى العكس من ذلك ، فقد اعتمد الكوفيّون القياس على لغة القبائل العربية جميعها من دون اعتبار لموطنها ومكان تنقّلها . قال السيوطي : « عادة الكوفيين إذا سمعوا لفظاً في شعر أو نادر كلام جعلوها باباً أو فصلاً ، وليس بالجيّد »[٢٩] وقال أيضاً : « لو سمع الكوفيّون بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه »[٣٠] .

والتداخل بين المذهبين الكوفي والبصري غير قليل، من ذلك أن سيبويه والأخفش قد قاسا بعض أحكامهما اعتماداً على القليل والنادر، مخالفين بذلك المذهب البصري العام في القياس ، فسيبويه قاس على قولهم في النسبة إلى شَنُوءَة شَنَئِي ، فقال : « فإن أضفت إلى : عَدُوَّة ، قلت : عَدَوِيّ ، من أجل الهاء ، كما قلت في شَنُوءَة : شنئيّ »[٣١] وقد علّل الأخفش هذا

الموقف بأن « شنوءة وشنئي » هو جميع ما سمع من العرب ولهذا أجاز القياس عليه ، والشائع عند العرب أن (فَعَلِيّ) نسبة إلى (فعيلة) نحو : حَنَفِيّ من حَنِيْفَة وقَبَلِيّ من قبيلة ، لكن سيبويه أخذ وزن (فعليّ) نسبة لـ (فعولة) عندما قال (عدويّ) من عدوّة قياساً على (شنئي) من (شنوءة)[٣٢] .

أخذت فكرة القياس عند الطبري حيّزاً قليلاً في تفسيره ،وبناء أحكامه .وقد لجأ في تناوله النحو إلى ما شاع عند العرب وانتشر، وأنكر القياس على القليل النادر والشاذ من لغة العرب في أكثر من مرّة ، وتتّضح هذه النظرة الأصولية عند الطبري باعتماده الشائع في أعراف اللغة في معظم تناولاته ونظراته النحوية مصرّحاً بذلك في مواضع كثيرة[٣٣] .

ومما أورده الطبري قياساً على الشائع من كلام العرب :

ـ دلالة المصدر (هوداً)[٣٤] في قوله تعالى : (**وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ**)[٣٥] على الجميع ، وذكر الطبري ذلك قياساً على قول العرب : رجل صَوْمٌ ، وقوم صوم ، ورجل فِطْر ، وقوم فطر ، ونسوة فطر بدلالة المصدر على الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث[٣٦] .

ـ نصب (لات) لما بعدها على أنه خبر لها قياساً على (ليس) ، ذلك في قوله تعالى : (**فَنَادَوْا وَلَاتَ حِيْنَ مَنَاصٍ**)[٣٧] .

ـ إعمال (ما) الحجازية فيما بعدها رفعاً ثم نصباً قياساً على (ليس) ، ذلك في قوله تعالى : (**مَا هَذَا بَشَراً**)[٣٨] .

ـ حذف حرف الجر قياساً في الأفعال التي تتعدّى بحرف الجر : نحو أمرتك الخير وأمرتك بالخير ، وربّ ليلة بتّها ، وبتّ فيها . وجذبت بالثوب ، وجذبت الثوب وقد قاس الطبري حذف حرف الجر في هذه الأفعال قياساً على ما سمع عن العرب وأورده كثيراً من ذلك[٣٩] .

وعدّ كثير من النحاة ، أن حذف حرف الجر من الأفعال التي تتعدى بحرف الجر هو قياس على القليل من الكلام العربي، فقد أنكر سيبويه حذف حرف الجر في: أستغفر الله ذنباً، وأمرتك الخير كثيراً ، بحجّة أنّ ذلك قليل في كلامهم ، وإنّما يتكلّم به بعض العرب . وغير جائز حذف حرف الجر مع كل ماكان متعدياً إلى الفعل بحرف الجر إلّا إذا كان قد سمع عن العرب[٤٠] .

وذكر ابن جني أنّ « حذف الحروف ليس بالقياس ، ذلك أن الحروف إنّما دخلت الكلام لضرب من الإختصار ، فلو ذهبتَ تحذفها لكنت مختصراً لها هي أيضاً ، واختصار المختصرَ إجحاف به » . « وإذا قلت : أمسكت بالحبل ، فقد نابت الباء عن قولك أمسكته مباشراً له وملاصقة يدي له . وإذا قلت : أكلت من الطعام ، فقد نابت (مِن) عن البعض ، أي أكلت بعض الطعام »[٤١] .

ويرى بعض النحاة أن القياس في حذف حروف الجر ليس مضطرداً . فقد نصّ الزمخشري في المفصّل على قياس حذف الجار مع (أنّ وأنْ)[٤٢] ، وقد أكّد ذلك ابن هشام بقوله : « يكثر ويطّرد مع (أنّ وأنْ) نحو قوله تعالى : (**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا**)[٤٣] أي بأنْ . وقوله : (**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُم إِذَا مِتُّم**)[٤٤] أي بأنّكم[٤٥] . وأجاز الأخفش الأصغر[٤٦] حذف الجار مع غيرهما أيضاً ـ أي مع غير (أنّ وأنْ) ـ قياساً[٤٧] .

فالقياس عند الطبري كان نتيجة للتفاعل القائم بين عقليته مفسّراً للقرآن الكريم ، وحاجته لما يدعم حججه للوصول إلى فهم لمعاني القرآن الكريم ، ولم يكن هدفاً يسعى إليه .

إهتمام الطبري بالمعنى :

إنصبّ اهتمام الطبري في تفسيره للقرآن الكريم على المعنى العام للآية لا مفرداتها ، وهو في معظم تناولاته النحوية ينطلق من معاني الآيات ، يشرح الرأي البصريّ معتمداً المعنى الذي يرونه ، ويتبعه برأي الكوفيين والمعنى الذي يرونه أيضاً ، ثم يختم الحديث بإبراز رأيه وهو يستند إلى معنى آخر ، من ذلك تفسيره لقوله تعالى : (**وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أنّهم لا يَرْجِعُونَ**)[٤٨] فقد أشار إلى أن (لا) نافية عند بعضهم إذا كان معنى الكلام : وعزم منا على قرية أهلكناها أن لا يرجعوا عن كفرهم[٤٩] ، ثم نقل عن بعضهم أن (لا) تكون زائدة في هذا الموضع إذا كان معنى الكلام : وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا[٥٠] فالطبري يبني أحكامه النحوية بعد اعتماده المعنى .

ومن ذلك ذكره لـ (ما) في قوله تعالى : (**ولا تنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُم مِنَ النِّساءِ إلّا مَا قَدْ سَلَفَ**)[٥١] . فالعرب تستعمل (ما) لغير العاقل ، و (مَنْ) للعاقل ، وقد عالج الطبري المسألة من معناها حين قال : « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ، على ما قاله أهل التأويل في تأويله أن يكون معناه : ولا تنكحوا من النساء نكاح آبائكم ... ويكون قوله : (ما نكح آباؤكم) بمعنى المصدر »[٥٢] .

أمر آخر يدل على اهتمام الطبري بالمعنى ، ووضعه في مقدمة تناولاته النحوية ، ذلك حين يبحث في قضية الحذف في كل الأبواب النحوية ، نراه يتوجّه بالآية نحو المعنى ، ويقدّر المحذوف بما يخدم المعنى الذي يريده ، من ذلك تفسيره لقوله تعالى : (**وَأَمّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزَاءَ الحُسْنَى**)[٥٣] بقراءة من قرأ (جزاءً) بتنوين النصب ، على تقدير فعل محذوف قبلها بمعنى : يجازيهم جزاءُ الجنّة[٥٤] .

ومنه اهتمامه بمعنى الجملة للوصول إلى تقدير العامل في الحال في قوله تعالى : (**فإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً**)[٥٥] ذلك لأن المعنى : إنْ خفتم أنْ تصلّوا قياماً بالأرض ، فصلّوا رجالاً .

ويظهر اهتمام الطبري بالمعنى ، وجعله غاية من غايات تفسيره ، في استخدامه

للمصطلح النحوي ، فهو يستخدم المصطلح الواحد في المعاني المتعددة لوجود قاسم مشترك بينها ، فهو يستخدم مصطلح (التفسير) للدلالة على التمييز[٥٦] والبدل[٥٧] ، اللذين يخصّصان ما قبلهما . ويستخدم (الصلة) للدلالة على الجار والمجرور حيناً[٥٨] ، وعلى نعت النكرة حيناً آخر[٥٩] ، والقاسم المشترك بين هذه المعاني هو أنها تخصّص ما قبلها .

الضرورة الشعرية :

ذكر الطبريّ أن بعض القرّاء احتجوا لصواب قراءتهم بأبيات شعريّة وصفها بالضرورة الشعرية التي لا يجوز قياس الكلام العربي عليها ، لأن الشعر يتسم بالضيق بما يحويه من قيود في الوزن والقافية وغيرهما ، من ذلك جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه في قوله تعالى : **(وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ من المشركِيْنَ قَتْلُ أولادَهُمْ شركَائِهِمْ)**[٦٠] . يقول : « قرأ ذلك بعض قرّاء أهل الشام بمعنى : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلَ شركائهم أولادَهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيه من الأسم .

وذلك في كلام العرب قبيح غير فصيح . وقد رُوي عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيّد قراءة من قرأ بما ذكرت من قرّاء أهل الشام ، رأيت رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهل العراق ينكرونه ، وذلك قول قائلهم :

فزجَجْتُهُ متمكّناً زَجَّ القلُوصَ أبي مَزَادَهْ[٦١] .

فقد أورد الطبري شاهداً على ما أحتجّ عليه الكوفيون من جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف ، وحرف الجر لضرورة الشعر[٦٢] .

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : (**واتّقُوا اللّهَ الذي تَسَاءلُونَ بِهِ والأَرْحَامِ**)[٦٣] بقراءة من قرأ قوله (والأرحامِ) بالكسر عطفاً على الضمير في (به) بمعنى : واتقوا الله الذي تساءلون به وبالأرحام . فعطف بظاهر على ضمير مجرور ، وهذا العطف غير فصيح في لغة العرب لأنهم لا يعطفون الإسم الظاهر على الضمير المجرور إلّا في الضرورة الشعرية ، ذلك لأنّ للشعر قيوداً خاصة ، أمّا الكلام فلا شيء يقيده ويلزمنا بالأخذ باللغة المكروهة الرديئة . ومما ورد في الشعر وقد عطف بالإسم الظاهر على الضمير المجرور للضرورة الشعرية قول مسكين الدارمي .

نُعلّقُ في مثلِ السَّواري سيوفَنَا وما بينها والكعبِ غوطُ نفانِفِ

فعطف بـ (الكعب) على الضمير في (بينها) لضرورة الشعر[٦٤] . وحرص الطبري على ذكر الآراء جميعها ، وذكر حججهم دليل على ما أراده من الشمول والتوسّع في سبيل الوصول إلى مختلف الإتجاهات سواء أكانت اتجاهات القرّاء أم النحاة .

طريقة عرض المسائل النحوية :

على الرغم من ضخامة تفسير الطبري ، وسعته إلّا أن سلامة عرضه كانت طابعاً مميزاً

له ، ولن أتوقف عند طريقة عرضه لتفسير القرآن بما يحويه من غزارة في الأحكام الفقهية ، والمذاهب ، والتيارات التي كانت سائدة في ذلك العصر ، إلّا أنّ تناوله للمسائل النحوية حوى نَفَساً واحداً بشكل عام ، فهو يذكر رأي نحاة البصرة أو الكوفة ، وقد يحدّد أكثر فيقول : (بعض نحاة البصرة أو الكوفة ، ويفصّل رأيهم ويذكر حججهم وشواهدهم من غير أن يردّ عليهم ، ثمّ يورد رأي مخالفيهم ويسوق شواهدهم أيضاً ، ثم يقول رأيه ، ويدفع بحججه فإمّا أنْ يخالف البصريين ـ وهو الأكثر ـ وإمّا أن يوافقهم ، وقليلاً ما نراه يذكر أسماء من يبرز آراءهم .

وإذا كانت معالجته النحوية ترتبط بقراءة قرآنية معينة ، فهو ينسب القراءة إلى صاحبها ، أو بلدها كقوله (قرّاء البصرة ، أو قرّاء الحجاز) ثمّ يتابع عرض الآراء والحجج .

وطريقة عرضه هذه اتّبعها في تفسيره كلّه ، وهي ـ على ما تحويه من جلاء لكثير من الأفكار والمسائل وتوضيحها ـ لا تخلو من بعض الثغرات منها :

الإساءة لما ينقله :

أخذ الطبري كثيراً عن (معاني القرآن) للفرّاء ، ونقل عنه نقلاً شبه تام في بعض المواضع ، لكنّه في بعض الأحيان لا يعطي الفكرة ما تحتاجه من إيضاح ، حتى تظهر في كلامه وقد بُترت ، وبالمقارنة مع ما في معاني القرآن للفرّاء نراها عند الفراء أكثر وضوحاً ونضجاً[٦٥] .

السهو في تفسيره :

وقع الطبري في أماكن قليلة من تفسيره ببعض السهو ، ذلك كأن يعرض أمراً لا علاقة له فيما يبحث من تناولات نحوية ، من ذلك قوله : إنّ الإسم المعطوف على اسم (إنّ) حكمه الرفع إذا جاء قبل مجيء الخبر ، واستشهد بقول ضابىء بن الحارث البرجمي :

فَمَنْ يَكُ أمسَى بالمدينَةِ رَحْلُهُ فإنّي وقَيّارٌ بها لَغَرِيبُ

ثم ذكر شاهداً آخر على القاعدة نفسها وهو قول الأخطل :

إنّ السيوفَ غُدُوَّها ورَوَاحَها تركت هوازِنَ مثلَ قرْن الأعْضَبِ

وكما نرى فإنّ البيت يخلو ممّا أراد الطبري الإستشهاد على صحته ، وليس فيه عطف على اسم إنّ ، وإنّما فيه إبدال من المنصوب[٦٦] ويؤكد الطبري سهوه عندما يلحق كلامه بشواهد أخرى صحيحة فيها عطف على إسم إنّ نحو قوله تعالى : **(إنّ اللّهَ وملائكَتَهُ يُصَلّونَ على النّبيِّ)**[٦٧] برفع (ملائكتُه)[٦٨] وقول بعض العرب الفصحاء : إنَّ الحمدَ والنعمةُ لَكَ والملكُ[٦٩] .

فالطبري يذكر القاعدة النحوية ويسوق لها الشواهد من قرآن ، وشعر ، وكلام فصيح ، ويذكر في ثنايا ذلك ما لا يمسّ الفكرة مسّاً مباشراً .

ومن المواضع التي وقع فيها الطبري أيضاً بالسهو هو تفسيره لقوله تعالى : **(عَسَى اللّهُ أنْ يَكُفَّ بَأسَ الّذينَ كَفَرُوا)**[٧٠] وذكر في ذلك : « وقد بيّنا فيما مضى أنّ (عسى) من الله واجبة ، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع » . ونتأكد من سهوه إذا عرفنا أنه لم يتعرض لـ (عسى) في تفسيره ، فما أشار إليه لا وجود له[٧١] .

ومنه تفسيره لقوله تعالى **(وأَسَرُّوا النَّجْوَى الّذِيْنَ ظَلَمُوا)**[٧٢] ، فقد ذكر أنّ لـ (الذين) وجهين من الإعراب : الأوّل : الجرّ على أنه صفة لـ (الناس) في آية سابقة والثاني : الرفع على الردّ على الأسماء الذين في قوله : (وأسرّوا النّجوى) « ولو قال : الرفع على الردّ على الأسم الذي في قوله : (وأسرّوا النجوى) لكان أكثر صواباً[٧٣] ، وما وقع فيه الطبري من عثرات نستطيع إرجاعه إلى عدّة إمور أهمها :

ـ ضخامة التفسير ، وطوله ، وهذا ما يجعله يغفل عن أمور وهو ظانّ أنه عرض لها .

ـ الإملاء على طلابه مشافهة من غير أن يرجع إلى كتاب ، بل يكتفي بما يختزنه في ذاكرته ، وهذا ما يوقعه ببعض اللبس والوهم .

إملاؤه لتفسيره أكثر من مرّة ، وما أشار إليه من أنه ذكره سابقاً ـ ولم أعثر عليه في التفسير ـ ، وبما قصد بذلك أنه ذكره في إملاء سابق لتفسيره .

ـ إحتمال أن يكون السهو في بعض الأمور قد وقع من طلابه الذين أملى عليهم وتناقل النسّاخ ذلك السهو حتى وصل إلينا .

ـ قد يكون السبب بعض الثغرات من النسّاخ أنفسهم .

ومهما يكن أمر هذه الثغرات ، فإنها لا تنال من قيمة التفسير في عصر تداخلت فيه الآراء والمذاهب ، وتشعبت فيه التيارات والأهواء ، ومن النادر أن نجد صاحب مذهب آنذاك لم يقده تفكيره إلى التعصب نتيجة لعوامل كثيرة .

الهوامش

---

(١) أنظر الطبري ١/٢٢ ، ٢/٣٤ ، ٢٥٧ ، ٤/٥٣٣ ، ١١/٤٩٤ ، ١٤/٢٢٤ .
(٢) هو علي بن الحسن أو (المبارك) الاعلام ٤/٢٧١ .
(٣) الإقتراح ١٩ ـ ٢٠ .

(٤) أنظر في أصول النحو ٤٩ ـ ٥٠ .
(٥) الطبري ب ١٦/١٨١ ـ ١٨٢ .
(٦) أنظر بغية الوعاة ٢٨٢ ، ٣١٨ ، ٣٣٤ .
(٧) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ٣٢٨ (إختصار ابن قيّم الجوزيّة) مطبعة الإعتدال بدمشق ١٣٥٠ هـ .
(٨) طه/١٥ .
(٩) اللسان : (كيد) والبيت شاهد على أن (كاد) بمعنى (أراد) .
(١٠) البيت شاهد على أن (كاد) قد تأتي زائدة ، وكان الأخفش قد ذكر ذلك ، أنظر اللسان (كيد) .
(١١) الطبري ب ١٦/١٥١ .
(١٢) الطبري ب ١٤/٢ .
(١٣) الطبري ١٥/٤٠٦ .
(١٤) الطبري ب ١٥/٢٣٤ .
(١٥) الطبري ب ١٦/١٨١ ـ ١٨٢ .
(١٦) الطبري ب ١٨/١٩ .
(١٧) أنظر مثلاً الطبري ١/١٥٢ ـ ١٦٩ ـ ١٨٩ ـ ١٩٠ ، ٢/٢٣٦ ـ ٢٨٩ ـ ٣٣٠ ـ ٣/٩٤ ـ ٩٥/٦ ، ٢٣٢/٧ ، ٣٤٠ ، ب ١٣/٢٤٢ ، ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، ب ١٥/١٥٨ ـ ١٩٣ ـ ٢٤٤ ، ب ١٦/١٥٣ ، ب ١٧/٩٢ ، ب ١٩/١١٦ .
(١٨) الأغاني ١٥/٣٨٠ ـ ٣٩٢ .
(١٩) مقدمة الفرّاء ١/٨ ـ ٩ .
(٢٠) الطبري ٧/٢٧٤ وروى البيت : ما كان داؤها بثهلان إلّا الخزيَ ، برفع (داؤها) ونصب (الخزيَ) .
(٢١) ٩/٤٠٢ .
(٢٢) الطبري ب ٢٠/٨ ، وانظر الطبري ٨/٢١٠ ـ ٢١١ ، ١١/١٩٨ ، ١٢/٤٤٤ ـ ٤٤٥ ، ١٣/١٤٤ ـ ١٤٧ ، ب ٢٤/٣٦ ، ٤٤ ، ب ٢٥/١٢ .
(٢٣) أنظر طبقات فحول الشعراء ٥ ـ ٦ ، ١١ (شاكر) .
(٢٤) علم اللغة العربية لمحمود فهمي حجازي ٢٣٤ نشر وكالة المطبوعات . الكويت ١٩٧٣ م .
(٢٥) نظام الجملة ٢/٥١٢ .
(٢٦) الكتاب ٢/٤٠٢ .
(٢٧) الخصائص ٢/١٢ .
(٢٨) نقلاً عن (القياس في اللغة) لمحمد الخضر حسين ٢٨ المطبعة السلفيّة ـ القاهرة ١٣٥٣ هـ .
(٢٩) همع الهوامع ١/٤٥ .
(٣٠) الإقتراح للسيوطي ٨٤ ط ثانية حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .
(٣١) الكتاب ٣/٣٤٥ .
(٣٢) انظر الخصائص ١/١١٦ ، ١٣٦ ، نظام الجملة ٢/١٥٩ ، في أصول النحو لمحمد خير الحلواني ٩٥ الناشر الأطلسي ـ المغرب ١٩٨٣ م .
(٣٣) أنظر مثلاً : الطبري ١١/٢٩٨ ، ١٢/٦٦ ، ٣٢٢ ، ٤٠١ ، ١٤/٢٨ ، ٢٤١ ، ١٥/١٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٩٩ ، ٤٩٦ ـ ٤٩٧ ، ١٦/٥٥٥ .
(٣٤) هودا : من هاد يهود هودا : تاب ورجع إلى الحق ، فهو هائد ، وقوم هود ، وفي التنزيل العزيز : (**إنا هُدْنَا إليكَ**) الأعراف/١٥٦ بمعنى : تبنا إليك . اللسان (هود) ، والمعجم الوسيط ٢/٩٩٨ .
(٣٥) البقرة/١١١ .

(٣٦) الطبري ٢/٥٠٧ .
(٣٧) ص/٣ ، الطبري ب ٢٣/١٢١ ـ ١٢٣ .
(٣٨) يوسف/٣١ ، الطبري ١٦/٨٤ ـ ٨٥ .
(٣٩) أنظر قسم « الأفعال التي تتعدّى بنفسها ، أو بحرف الجر » .
(٤٠) الكتاب ١/٣٧ ـ ٣٨ ، وانظر (مسالك القول في النقد اللغوي) لصلاح الدين الزعبلاوي ط ١ الشركة المتحدة للتوزيع دمشق ١٩٨٤ م .
(٤١) الخصائص ٢/٢٧٣ ـ ٢٧٤ .
(٤٢) شرح المفصّل لابن يعيش ٨/٥٠ نشر مكتبة المتنبي بالقاهرة وعالم الكتب ببيروت ، بلا تاريخ .
(٤٣) الحُجرات/١٧ .
(٤٤) المؤمنون/٣٥ .
(٤٥) مغني اللبيب ٢/٧١٢ .
(٤٦) علي بن سليمان بن الفضل ت ٣١٥ هـ نحوي من العلماء . من أهل بغداد أقام زمناً في حلب . توفي في بغداد وهو ابن ٨٠ سنة . الأعلام ٤/٢٩١ .
(٤٧) شرح الكافية للرضي ١/٢٧٣ .
(٤٨) الأنبياء/٩٥ .
(٤٩) إختلفت القرّاء في قراءة قوله (وحرامٌ) ، فقرأته عامة قرّاء أهل الكوفة : (وحِرْمٌ) بكسر الحاء وتكون بمعنى (عَزْم) أنظر الطبري ب ١٧/٨٧ .
(٥٠) الطبري ب ١٧/٨٧ .
(٥١) النساء/٢٢ .
(٥٢) الطبري ٨/١٣٧ وانظر ٥/٤٣٨ ، ٦/٢٩ ، ٨٢ ، ٩/٥٥٢ ، ب ١٥/١٨ ، ب ١٦/١٢٩ .
(٥٣) الكهف/٨٨ .
(٥٤) الطبري ب ١٦/١٣ .
(٥٥) الطبري ٥/٢٣٧ وانظر ٧/٢٠٨ .
(٥٦) الطبري ٦/٥٨٦ ، ٨/٦٧ ، ٥٣٣ ، ١١/٤٤ ، ب ١٥/١٩٣ ، ٢٠٦ ،
(٥٧) الطبري ١٢/٧ ، ب ١٩/٤٥ .
(٥٨) الطبري ٧/١١٤ .
(٥٩) الطبري ٧/١١٤ .
(٦٠) الأنعام/١٣٧ .
(٦١) الطبري ١٢/١٣٧ ـ ١٣٨ ، وانظر الفرّاء ١/٣٥٨ ، الإنصاف ٢/٤٢٨ .
(٦٢) الطبري ١٢/١٣٧ ـ ١٣٨ .
(٦٣) النساء/١ .
(٦٤) الطبري ٧/٥١٩ ، وانظر الفرّاء ١/٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، الإنصاف ٢/٤٦٥ .
(٦٥) أنظر الطبري ب ١٥/٦٤ يقابله الفرّاء ٢/١٢١ ـ ١٢٢ ، الطبري ١٣/٢٧ يقابله ١/٣٨٩ ـ ٣٩٠ ، الطبري ١٥/٢٠٦ ـ ٢٠٧ يقابله الفرّاء ١/٤٧٩ ـ ٤٨٠ ، الطبري ١٢/١٩٥ يقابله الفرّاء ١/٣٦٠ ـ ٣٦٣ .
(٦٦) الطبري ب ١٦/١٨١ ـ ١٨٢ ، لعلّ الطبري أراد (وواحُها) ، وعدّ العطف على البدل من إسم (إنّ) كالعطف على اسم (إنّ) نفسه .
(٦٧) الأحزاب/٥٦ .
(٦٨) رواية عبد الوارث عن أبي عمرو . مختصر في شواذ القرآن ١٢٠ وقد أجاز الكسائي ذلك وتابعه ثعلب ، وعدّ الزجّاجي هذه القراءة من لحن الأمراء الذين يغلطون ولا يرجعون عن غلطهم . أنظر إعراب القرآن

للنحاس ٢/٦٤٥ تح : زهير غازي زاهد . بغداد ١٩٨٠ م ، مجالس ثعلب ١/٢٦٢ ، مجالس العلماء للزجّاجي ٥٤ـ٥٥ تح : عبد السلام هارون الكويت ١٩٦٢ م .

(٦٩) الطبري ب ١٦/١٨١ ـ ١٨٢ .

(٧٠) النساء/ ٨٤ .

(٧١) الطبري ٨/٥٧٩ (حاشية المحقق) .

(٧٢) لأنبياء/ ٣ .

(٧٣) الطبري ب ١٧/٢ والرّد : هو البدل عند الطبري .

قال أمير المؤمنين علي (ع) :

« قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين : البخيل فتكون في أموالهم نهمته . ولا الجاهل فيضلهم بجهله . ولا الجافي فيقطعهم بجفائه . ولا الحائف للدول ، فيتخذ قوماً دون قوم . ولا المرتشي في الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع . ولا المعطّل للسنّة فيهلك الأمة » .

صفحات مشرقة من الأدب الايراني

د . حسن أبو عليوي

يرى نقّاد الأدب الفارسي ، أنّ التاريخ الحقيقيّ للشعر الفارسي إنما يعود إلى العهد الإسلامي ، بسبب التمازج الثقافي والحضاري بين الإيرانيين والعرب ، وما آلَ إليه التزاوج والإختلاط في شتّى مظاهر الحياة من انعكاساتٍ على صعيدي اللغة والأدب .

لقد طُبّقت القوالب والمقاييس العروضية العربية على الشعر الفارسي ، فخطا خطوات كبيرة نحو التطوّر والكمال على أيدي مجموعة من أعلام الشعر الفارسي الذين نبغوا في دنيا الأدب وذاع صيتهم ، حتى انفردوا بأشكال وموضوعات من القصائد ترجمت إلى اللغات العالمية . « فالرباعي » ، و « المثنوي »[1] ، هما ضربان من النظم ابتكرهما شعراء فارس ابتكاراً ، وقد قيل : إن أول ضروب النظم التي نشأت في إيران هو « الرباعي » أو ألـ « دوبيت » . أمّا « القصيدة » و « القطعة » فهما ضربان من ضروب النظم استعارهما شعراء فارس من العرب ، وقد وضعوهما على نسق المعلّقات الجاهلية من حيث الصياغة والأسلوب ، وأن كان قد أصابهما شيء من التعديل على أيدي شعراء فارس ، كما فعلوا أيضاً « بالغزل » .

لمِع في سماء الشعر الإيراني عدد كبير من الشعراء الأعلام ، شكّلوا فيما بعد مدارس شعرية غدت قدوة لغيرهم ، فحذوا حذوهم ، وساروا على منوالهم ، وترجمت قصائدهم إلى أبرز اللغات العالمية ، نذكر من هؤلاء حسب التسلسل الزمني الشعراء :

١ ـ الرُّوْدَكي السَّمرقندي (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) ، والذي اشتهر بفنون شعرية كثيرة ، فقد برع في الشعر القصصي والحِكم والمواعظ ، إذ نظم كتاب كليلة ودمنة ، كما اشتهر بغزله الرقيق ، وقد لُقّب بجدارة « أستاذ الشعراء » .

٢ ـ الفردوسي الطوسي (المتوفى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م) ، « أبو الشعر